اللسانيات العربية في ضوء التراث ومقتضيات التطبيق المنهجي.

الدكتور: يوسف وسطاني
جامعة محمد لمين دباغين / سطيف2.

ملخص البحث

يندرج المقال ضمن مباحث المحور الأول للملتقى، المتعلقة بطبيعة التوظيف الفني للتراث، ومنه ينبثق عنوانه : اللسانيات العربية، التي تشكل جزءا هاما من التراث العربي الإسلامي، في طرح ممنهج ضمن جملة من التساؤلات، تتعلق بكنه التراث وأنماطه، ومكانة علوم العربية (اللسانيات) في تشكيل التراث العربي المدوّن، وسبل توظيفها توظيفا فنيا، يجسد منهجا عربيا أصيلا، ينطلق من معطيات التراث، ويساير مستجدات علوم اللسان في العصر الحديث.

ويتناول المقال كل ذلك من خلال العناصر الآتية :

–التراث : مفهومه وعناصره المشكلة له .

–مكانة علوم اللسان في التراث العربي.

–علوم اللسان العربي ومقتضيات التطبيق المنهجي في الأدب : منظومه ومثوره.

–خلاصة : بأهم نتائج المقال.

الكلمات المفتاحية : التراث––الكنه والطبيعة – اللسانيات – التوظيف الفني –المنهج.

Titre : Place de la Linguistique dans le Patrimoine Arabe, et la Méthodologie de son Application fonctionnelle.

Cet article traite l'utilisation planifiée d'une partie du Patrimoine revenant à la Linguistique Arabe. Et il sera développée selon les éléments suivants :

- Définition du terme : « Patrimoine, sa nature et ses composantes.
- La place prépondérante de la Linguistique Arabe dans ce Patrimoine.
- Quelques critères quant l'application fonctionnelle des sciences de la Linguistique pour comprendre et préserver le Patrimoine arabe écrit.
- Conclusion : reflétant les points essentiels de cette Communication.

المقدمة:

إن الذي لا ريب فيه أن الأمم – كل الأمم الراقية – تعتز بمقوماتها الحضارية وتعمل جاهدة بكل الوسائل على الحفاظ عليها وترسيخها في أذهان النشء بغية تخليدها، في الحياة العملية بكل أوجهها المادية والمعنوية، فتشكل بذلك النبع الأصيل الذي تستمد منه حركيتها الدائبة في هذا الكون، ومن ثمة تضع الإطار الحضاري الذي يميزها بخصائص مختلفة تُستمد بالأساس من تلك المقومات والأسس، والروافد فتنال بذلك المكانة اللائقة بها بين سائر أمم الأرض.

ولا يمكن لأية أمة أن تنال أي حضوة بين الأمم إلا إذا أسست بناءها الحضاري بعناصره، منطلقة من أصالتها المشكلة من عوامل متكاملة ومتضافرة لعل أبرزها الدين واللغة والتاريخ، تلك العناصر التي بتفاعلها تفاعلا إيجابيا، في حيز جغرافي معين، تشكل بحق هوية الأمة المتميزة بخصائصها النفسية والاجتماعية وفق ما تقتضيه مضامين تلك العناصر من شروط الانتماء الحضاري الخاص بها، والتي تتجلى في تفاعل الكائن البشري مع متطلبات الحياة في أوجهها ومجالاتها المختلفة. ولا ريب أن ما ذُكر سلفا من عناصر حضارية مميزة للأمة في انتماءاتها يشكل الموروث المادي والمعنوي المتراكم عبر العصور، والذي تجسّد فيه ما أنتجه السلف من قيم وأفكار وعلوم في شتى مناحي الحياة، وهو ما يطلق عليه اسم التراث الذي يشكل بحق همزة الوصل بين الماضي والحاضر، ومنه المنطلق الأساس للتطلع إلى المستقبل لأنه لا يمكن القول أن ما يزخر به ماضي الأمة من علوم وفنون وأفكار وآراء هو نتاج عشية وضحاها، بل هو ذلك التراكم المعرفي والفكري الذي نشأ وترعرع على مر الأيام، فشكل زخما من تراكمات المعارف والتجارب والخبرات لأجيال متعاقبة. ولا شك أيضا أن التطورات المذهلة الحاصلة في عالم اليوم في شتى أوجه الحياة الفكرية والأدبية والعلمية هي بلا ريب نتيجة تلك التراكمات والإضافات التي لا تستقر على حال لأن سنة الحياة تقتضي تلك التحولات والتغيرات المستمرة في حياة الإنسان، مما يفتح المجال واسعا فيما يتعلق بمبدأ التأثير

والتأثر في خضم تلك التحولات الحاصلة في حياة الإنسان وهو يصبو إلى التطور في مجالات حياته، كيف يتعامل مع محيطه القريب والبعيد انطلاقا من ذلك الموروث الثقافي والفكري الذي ينتمي إليه؟، وكيف يمكن له أن يحقق تلك "المناعة" الثقافية التي تقيه شر الذوبان في غيره، وقد أضحى عالمنا قرية صغيرة تتلاقح فيها الأفكار وتتنوع الاتجاهات بتسارع مذهل، تسعى كل أمة أن يكون لها قصب السبق في بسط "هيمنتها" الفكرية والعلمية تحت شعارات مغرية ظاهرها تلاقي وتلاقح الثقافات وباطنها – في أغلب الأحيان – الاستلاب الفكري والثقافي وترسيخ القطبية الأحادية، والأمثلة على ذلك كثيرة. ولما كان لكل أمة ماضيها التاريخي والثقافي والفكري، فذلك يشكل ما يطلق عليه بالتراث. فما الذي نعنيه بهذا المصطلح في مجال الأدب بمنظومه ومنثوره؟، ما مضمون التراث ونعني بذلك عناصره المشكلة له؟، هل علوم اللسان العربي تشكل حيزا من هذا التراث؟.

ذلك ما تحاول هذه المداخلة الإجابة عنه تبعا للعناصر الآتية:

1- التراث: مفهومه، وعناصره المشكلة له.

2- مكانة علوم اللسان في التراث العربي.

3- اللسانيات العربية ومقتضيات التطبيق المنهجي في الأدب، منظومه ومنثوره.

4- خلاصة بأهم نتائج المداخلة.

<u>1-التراث</u>: مفهومه وعناصره المشكلة له: من أهم مميزات اللغة العربية أنها اشتقاقية بامتياز، إذ يمكن الانطلاق من جذر أي كلمة للوقوف على معناها المتواضع عليه، وهاهو مصطلح "تراث" أمامنا فمن أي جذر اشتق؟، من الثلاثي المثال "**وَرِثَ**" والمعنى: "ورث من أبيه، و قيل: ورث أباه مالا يرثه وراثة أيضا، والتراث بالضم، والإرث والميراث أصله "**مِوراث**" والتراث أصل التاء[1] فيه واو، وكل هذه الألفاظ بمعنى واحد ويتجلى في نيل تركة معينة بعد موت صاحبها وتعود لورثته بوجه شرعي معين، وبهذا المعنى ورد مصطلح التراث في

القرآن الكريم، بصيغ مختلفة تحمل دلالة الجذر المذكور آنفا وهي: "ورث"، ومن تلك الآيات نذكر الآتي بصيغة الفعل: "**وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوودَ وَقَالَ يَا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتينا من كُلّ شيءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبين**" النمل/ 16.

وقوله تعالى: "**فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وورِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُث**" النساء/ 11.

وبالمغايرة في صيغة الفعل المبني للمجهول: "**ونودُوا أن تلكُم الجنّة أُورِثتُموها بما كُنتُمْ تعمَلُون**" الأعراف/ 43.

وبصيغة اسم الفاعل إفرادا وجمعا: "**لا تُضارَّ والِدَة بِولدهَا وَلا مَوْلُودٌ لهُ بِولَدِهِ وعلى الوَارِثِ مثل ذلك**" البقرة / 233، وقوله تعالى: "**وإنّا لَنَحْنُ نُحيي ونُميتُ ونَحْنُ الوارِثُونَ**"الحجر/23.

والجمع المكسر: "**واجْعَلْنِي من وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعيمِ**" الشعراء/85.

وبالمصدر بالإعلال بالقلب، في قوله تعالى: "**وَلِلّهِ ميراث السَّماواتِ والأَرْض واللهُ بما تَعْمَلُونَ خَبير**" آل عمران/180.

وإضافة إلى هذه الصيغ المختلفة فقد ورد مصطلح "التراث" بصيغته المعهودة في قوله تعالى: "**وَتَأْكُلونَ التراثَ أَكْلاً لَمّا**"الحجر/19، غير أنّ التعبير القرآني استخدم صيغة الفعل في أكثر من آية لا يسع المجال لذكرها، لعلّ من أسباب ذلك قوة الفعل في الدلالة الحركية في المجالات المعبّر عنها. وما يهمنا ههنا المعنى الذي يحمله مصطلح التراث، إذ تبيّن من خلال معنى جذر الكلمة في معاجم اللغة وتوظيفها في آي الذكر الحكيم أنّ مصادر فعل "ورث" متعددة بصيغ مختلفة منها: الإرث، الميراث، الوِرث، الوِراثة، الإراثة، الإيراث، والوَرِثَة[(2)]، والتراث، وكل هذه الألفاظ تتمحور حول معنى واحد: انتقال ملكية شيء مادي أو معني من شخص لآخر، أي من السابق إلى اللاحق بفعل أحكام شرعية أو قانونية أو غيرها من الوسائل، ومن خلال ذلك يتمكّن "الوارث" المستفيد من التمتع بذلك الإرث بصفة طبيعية، ولعلّ مفهوم الميراث أو التراث ما يقابله لفظ الفرنسية "Patrimoine"[(3)]،

والذي يعطي المعنى نفسه للفظ التراث حيث جاء فيه "التراث" مشتق من اللاتينية Patrimonium من Pater وهو الأب، ومعناه أي Patrimoine هو مجموعة الممتلكات الموروثة عن الأب أو الأم، وهو أيضا ميراث مشترك لجماعة أو فئة معينة من الناس *، وبذلك يحصل اتفاق تام مع ما سبق ذكره بشأن الميراث أو التراث، والذي يعني أنّ شيئا ما كان لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو سبب(4).

لقد أشرنا بإيجاز إلى معنى المصطلح لإدراكنا بيقين أن عدم فهم معناه، والوقوف على كنهه يشكل عقبة كؤودا في طريق الباحث، فتستغلق عليه أمور ومتعلقات ذلك المصطلح وتبعا لذلك لن يتمكن من الخوض في لبّه وخباياه.

وانطلاقا من هذا وجب علينا – في هذا المقام- تحديد مفهوم التراث الذي ينعقد بشأنه ملتقانا هذا، ليتسنّى لنا توظيفه "توظيفا" براغماتيا نفعيا نحقق به – إن فعلنا ذلك بجد – سؤددنا في الحياة ونرفع شأننا بين الأمم.

لقد اتضح من خلال إشارات التعريف السابقة لمصطلح "التراث" أنه يشكل ذلك الموروث المادي والمعنوي مما ترك السلف، ويكتسي وفقا لذلك أهمية بالغة في حياة الفرد والجماعة، وتتجلى تلك الأهمية في شقيه المادي والمعنوي، أما الأول – وهو لا يعنينا في هذا المقام – لأنه يحوي في معناه الأمور والأشياء الملموسة على اختلاف أنواعها وأشكالها بدءا بالمال والكنوز المختلفة، مرورا بفن العمارة وطرق التحضر والتمدن، ووصولا إلى الآثار والحفريات وما إليها، إن الذي يهمنا ههنا هو الجانب المعنوي من التراث، ونعني به ذلك الموروث الفكري الذي عكف على تأليفه أسلافنا على مراحل متتالية من تاريخ أمتنا البعيد، والذي تعددت مناحيه وأنواعه ومناهجه بتعدد مشارب ومذاهب الرعيل الأول من علماء ومفكري أمتنا العربية الإسلامية. ولئن تعدّدت تلك المنابع التراثية بغزارة إنتاجها، فإن الذي نروم الحديث عنه هو مجال **علوم اللسان العربي** على اختلاف أنواعها ومستوياتها كونها جزءا لا يتجزأ من تراثنا الفكري العربي الإسلامي بل وتعد مفخرة للعقل العربي المتأثر بتعاليم الدين الحنيف، الذي حث على العلم والبحث والتنقيب والتأمل في

كل مناحي الحياة، ولأن هذه العلوم اللسانية هي –وهذا لا يخفى على أحد– وليدة الدين الإسلامي، انبرى لها جمهرة من العلماء الفطاحل لوضع أسسها الأولى، ثم نمت وترعرعت على يد تابعيهم إلى أن بلغت مرحلة النضج والعطاء، وشكّلت ميراثا لسانيا خالدا انبثق من لغة القرآن الكريم، ويساير المراحل كلها، ومازال يساير ويتماشى مع كل المستجدات اللسانية في كل مكان.

فما هو كنه علوم اللسان العربي في مضمون التراث؟.

1- **كنه علوم اللسان العربي في مضمون التراث:** لقد ذكرنا سابقا أن التراث شامل لكل "التركة المادية والمعنوية" التي يورثها السلف للخلف، ونود أن نشير ههنا إلى جزء من تراثنا الفكري وهو: علوم اللسان، ونعني بالكنه طبيعة هذه العلوم، ودلالة إضافتها للسان الذي يوصف بالعربي وصفا ونسبة، ولا يمكن في عجالة تصنيف هذه العلوم، وبيان ارتباطها ببعضها وتكاملها في آداء الكلام واستقامته، ولكننا سنشير بإيجاز إلى طبيعة هذه العلوم التي جملها أحدهم في قوله: (علوم العربية)

نحو وصرف عروض ثم قافيةوبعدها لغة قرض وإنشاء**
خطّ بيان معان مع محاضرةوالاشتقاق لها الآداب أسماء.**

الملاحظ في هذا التعريف المنظوم، عدم التفريق بين علوم اللغة وآدابها مثلما هو حاصل في وقتنا هذا، وهي كثيرة تحتاج إلى تفصيل ليس مقامه ههنا.

كما حصرها "ابن خلدون" في أربعة بقوله: "أركانه أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب"، والملاحظ أنه لا يفرق بين اللغة والأدب بل هما عنده كيان واحد، ويرى أيضا أنه يجب الإلمام بها والتمكن منها لفهم لغة العرب التي دُوّن بها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، غير أنه يستدرك، فيشير إلى تقديم علم النحو على تلك العلوم جميعا فيقول بهذا الشأن: ".... والذي يتحصل أن الأهم المقدم

منها هو النحو، إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيُعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ولولاه لجُهل أصل الإفادة[6]...".

ولاشك أن الخوض في تصنيف علوم اللسان العربي تصنيفا إفراديا، والبحث في وظائف ووظائفه مع بقية العلوم الأخرى يأخذ حيزا أوسع وأطول، وتبعا لذلك نكتفي بما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة والمتفق بشأنها بين سائر لغات العالم وتتجلى في ما سُمي بمستويات اللغة، إذ تتشكل هذه الأخيرة من المستويات التالية: الصوت وهو علم يتناول أصغر وحدة في اللفظة (أي الحرف) وينقسم قسمين علم مخارج الحروف، وعلم وظائفها ثم الصرف، وهو علم جليل يتناول بنية الكلمة أي الهيئة الحاصلة في الكلمة التي اقتضاها المقام، ثم علم النحو أو علم التراكيب، ونعني به ذلك العلم الذي يُعنى بدراسة الكلمة مركبة مع غيرها متأثرة بما سبقها وما لحقها في سياق معين، والمعجم الذي يُعدّ خزان اللغة الذي منه تستمد الألفاظ والمفردات التي يقتضيها التركيب أو الجملة التي تحمل معنى معينا. ولا ريب أن علوم البلاغة التي تنطلق من النص بأحكام معيارية، هي علم آخر من علوم العربية لأنه من خلالها يتم الوقوف على مستوى الكلام من جوانب عدة، وتصنيفه في مستوى معين بأحكام علمية معللة، انطلاقا من التعالق الملحوظ بين النصوص المنتجة بلغة معينة، وفي نطاق ظروف معينة أيضا، ولا يغيب عنا أن تراثنا اللغوي قد مر بمراحل متميزة، تخللتها بحوث بذلت خلالها جهود جبارة يمكن الإشارة إلى هذه المراحل في الآتي:

1- مرحلة الدراسة الوصفية التحليلية الشاملة للمادة اللغوية العربية.
2- مرحلة الدراسة النحوية المتخصصة.
3- مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط البلاغة بالنحو وتمخض عن هذه الحقب الزمانية الثرية بالعطاء إنتاج المصنفات الكثيرة في هذه العلوم، واحتلت مكانة مرموقة في ثنايا تراثنا العربي الإسلامي، وكان وراء كل ذلك الزخم من العلوم أسباب كثيرة لا

يسع المجال لذكرها بالتفصيل لعل أبرزها هو العامل الديني، كون اللغة العربية هي وعاء رسالة الإسلام الخالدة، إضافة إلى عامل اعتزاز العربي بلغته وغيرته عليها بعد اختلاط العرب بالأعاجم وما شكله من أسباب اللحن والخطأ في الكلام العربي. وتبعا لذلك برزت مدارس نحوية قائمة بذاتها أولا المدرسة البصرية مع الرعيل الأول من النحاة وعلماء اللغة ثم المدرسة الكوفية، ومدارس أخرى غربا وشرقا من الوطن العربي على غرار المدرسة البغدادية، والأندلسية والمصرية، والمصنفات في هذا المضمار كثيرة، تشكل منابع لسانية سايرت وتساير كل الأزمنة بالدراسة والتحليل والإضافة من تلك المنطلقات التي وضعها الأوائل من النحاة واللغويين وبذلك حظي هذا الجزء من التراث بنمطين متكاملين متضافرين من المصنفات النحوية، تجلّى الأول في **الجوانب النظرية** للنحو وأصوله وأسسه وقضاياه من السماع والقياس والاستصحاب وما يتصل بتلك القضايا من مسائل تتعلق بتلك الفصول.

أما النمط الثاني فكان يتسم **بالتعليمية** حيث تضمن أبواب النحو ومسائله وضوابط التراكيب والجمل، وبنية المفردات وتصريفها، وسار هذا النمط في عدة اتجاهات تعرض مسائل النحو، والتصريف منفصلة عن بعضها، وتسجيل ما دار في مجالس العلماء في مسائل النحو والصرف، وما أملاه هؤلاء العلماء على طلبة العلم، كما تم – في المجال التطبيقي – استخدام الضوابط النحوية والصرفية على نصوص كاملة من القرآن الكريم، ومن الشعر العربي، والوقوف على بعض أشكال اللحن والانحرافات اللغوية في المفردات والتراكيب، التي ظهرت على ألسنة الخاصة والعامة في ذلك الحيز من الزمن.

ومن أشكال تلك التطبيقات، أن علماء العربية الأوائل قد اهتموا بأجزاء الكلمة مفردة، وفي كل حرف من حروفها في إطار التركيب النحوي مع إجراء الملاحظات

التي تخص التغيرات الصوتية المؤثرة في المعنى، المتعلقة بالظواهر اللغوية المتنوعة[9]، ويبدو ذلك جليا في بعض مصنفاتهم مثل: الخصائص، وسر صناعة الإعراب، والتصريف الملوكي لابن جني، وغير ذلك كثير. إن الحديث عن علوم اللسان العربي كجزء من التراث يقتضي تفصيلا دقيقا بتصنيف تلك المعارف، غير أن الذي يهمنا أكثر هو كيف نستفيد من ضخامة ذلك التراث، والذي امتد تأليفه زمانيا من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي) شمل –إضافة إلى ما سبق ذكره- العلوم الإنسانية والعلوم الطبية والرياضية وسائر المعارف القديمة مما يصعب تصور حجم ما خطته أقلام العلماء والمفكرين والأدباء من المسلمين في شتى فروع المعرفة وفي حدود ما تبقّى منه حتى يومنا هذا، فضلا عما امتدت إليه عاديات الزمن بالتبديد أو الإحراق أو الضياع، ومن هذا التراث الضخم نجتزئ شيئا يسيرا – بالإشارة- ويتعلق الأمر بعلمي النحو والبلاغة، ومقتضيات التطبيق المنهجي للإستفادة من التراث، وذلك في المبحث الموالي:

- **علوم اللسان العربي ومقتضيات التطبيق المنهجي: "النحو والبلاغة أنموذجا":**

لقد ذكرنا في فقرة سابقة أن علوم اللسان العربي كثيرة، وكثرتها تدل على غنى اللغة العربية بالزاد والثروة اللغوية، وصنوف الاشتقاق والأساليب الدقيقة في التعبير عن أدق المعاني وأسماها، فمن الطبيعي أن تكثر علومها وتتنوع بتنوع ثرائها وغناها، لتتضافر وتتكامل فيما بينها وتشكل ذلك الحصن المنيع ضد كل ما من شأنه أن يسيء إلى بيانها الناصع، وتتجلى ذلك "الحصن" في نحوها الخالد المستنبط من آي الذكر الحكيم ومن كلام العرب الخلّص بجهود فطاحل العربية الأوائل، ولنا في هذا العلم تراث ضخم بمؤلفات تزخر بها المكتبات شرقا وغربا، ولقد تناولنا علم النحو والبلاغة دون سائر علوم اللسان العربي لسببين: الأول يتعلق بالمقام، لأن حيزه ضيق لا يسع الكلام عن كل تلك العلوم، والثاني وظيفي منهجي محض يتجلى في مكانة علم النحو بين سائر هذه العلوم:

فقد قيل:

النحو يُصلح من لسان الألْكَنِ ** والمرء تُكرمه إذا لم يَلْحَنِ

وإذا طلبتَ من العلوم أجلّها ** فأجلّها نفعا مقوّم الألسن.

فالنحو العربي له حق الصدارة والتقدم بين سائر تلك العلوم، فبواسطته يعرف صواب الكلام من خطئه، ثم لصلة بقية علوم اللسان به فيستعان به على فهمها وتوظيفها في الكلام. ومعلوم لدى الدارسين أن كل علوم التراث متصلة ببعضها، ومن هنا يتبين أيضا أن دراسة أي جانب منه بمعزل عن الجوانب الأخرى قد لا يفيد الدارس، ولذا أدرجنا البلاغة مع النحو في هذه المداخلة للصلة الوثقى بين العلْمين، كما سيتبين لاحقا وفق منهج عملي نحسب أنه يحقق الغرض من الاستفادة من توظيف علوم التراث في المنظوم أو المنثور من الكلام العربي الأصيل.

وتبسيطا لهذا المنحى، نورد فيما يلي سؤالين فرعيين للوقوف على العلاقة الرابطة بين علمي النحو والبلاغة وذلك كالآتي:

أ- ما موضوع النحو العربي أو بالأحرى ما وظيفته الأساس في المنطوق والمدون من الكلام العربي؟.

ب-والسؤال ذاته لعلم البلاغة (وظيفتها ومنطلقاتها).

النحو: ننطلق من المعنى الاصطلاحي للنحو دون المعاني اللغوية الأخرى، لنقف على وظيفته التي شاعت على الألسنة والمتمثلة في تلك القواعد التي بموجبها تعرف أحوال أواخر الكلمات العربية التي جاءت نتيجة تركيب الألفاظ بعضها ببعض، من إعراب وبناء وما يتبعهما، ووفقا لتلك الضوابط يتم حفظ اللسان العربي – نطقا وتدوينا- من الخطأ، وهذا المنحى في تعريف وظيفة النحو صحيح غير أنه غير مكتمل الجوانب، ذلك أن النحو العربي علم مستخرج بالمقاييس المستنتجة من أفصح كلام العرب، والتي تمكّن الدارس من الوقوف على معرفة أحكام أجزائه التي تتألف منها، ومن ثمة فهو مفهوم شمولي قريب من التصور اللغوي الحديث، وذلك يعني أن النحو لا تتوقف وظيفته عند وصف طبيعة العلاقات التركيبية للجمل، بل

يجتاز ذلك إلى وصف العناصر الشكلية والأبنية الصرفية التي تتنوع في خدمة العلاقات التركيبية للجملة التي تحمل معنى مفيدا، وذلك ما يوافق بدقة النظرة العلمية الحديثة للنحو التي تنطوي في جوهرها على عدم الفصل بين قوانين الأصوات (المستوى الأول للغة) قوانين التغيرات الصرفية (المستوى الثاني) وقوانين العلاقات الجملية التركيبية (أي النحو وهو المستوى الثالث من مستويات اللغة). وتبعا لما سبق، فإنها أي —النظرة الحديثة للنحو- لا تعزل تلك المستويات عن مستوى المعجم[10]، ونعني به تلك العلاقات التركيبية التي تقوم بها المفردات المعجمية التي تأتلف في التركيب وذلك ما يمكّن من الوصول إلى المعنى المراد تبليغه، بحسب قدرة وكفاية الباث للخطاب، ودرجات التلقي لدى المرسل إليه (المخاطب). وإذا كان نحّاتنا الأوائل لم يضعوا تحديدا دقيقا لأشكال الجملة لأنها لم تكن منطلقا في دراساتهم، إلا أنهم بتناولهم لمختلف أبواب النحو التي تمثل الوظائف النحوية المتعددة، يوحي بتصوّر ذهني تدور في إطاره الجملة العربية، نتيجة لنشاط استقرائي تحليلي، ومن هذا الأساس تشكلت مبادئ وأصول المنهج النحوي أو ما يعرف بالنظرية النحوية العربية. ومن ثمة فإن حصر وظيفة النحو العربي في الوقوف على الحركات الإعرابية للألفاظ المؤلفة مع بعضها هو "شكل" من أشكال التقزيم لوظائف هذا العلم الجليل في العربية، ولعل ذلك ما شكّل سببا مباشرا في نفور تلاميذنا وطلابنا من تعلم النحو وتطبيق قوانينه وضوابطه على نصوصهم، لأنه يقدَم لهم في قوالب جافة وجمل مبتورة يحرص فيها المعلم أو الأستاذ على تعليل وجود "الضمة أو الكسرة أو السكون" أو وجود الحركات الفرعية للإعراب، دونما تحليل ولا تعليق ولا ربط بين أجزاء التركيب، فتذهب جهوده سدى. ذلك أن الفهم الكامل لأي إنجاز علمي، يقتضي تحليله، أو على الأقل الفهم الذي يمكن الاطمئنان إليه، ولا يتأتى ذلك دون تفسير لهذا الإنجاز[11]. وما نعني به التطبيق العملي للقاعدة النحوية في أوضاعها المختلفة عبر نصوص سيستجيب بالمضمون لمثل هذه العمليات، حتى يتسنى للطالب استيعاب القاعدة النحوية وتطبيقها على نماذج

أخرى، بل تصبح وفق هذا النهج ملكا له، يستحضرها تلقائيا كلما اقتضت الضرورة لذلك، ومن ثمة يقف على ضرورة فهم النحو العربي بوصفه واحدا من علوم الحضارة العربية الإسلامية، مع الإشارة إلى تجنب إسقاط المفاهيم المعاصرة على المادة النحوية القديمة. وذلك ما يحاول الكثير من الدارسين المحدثين القيام به، لأنه بلا ريب يشكل إخلالا بنسق اللغة العربية، مع الملاحظة عند بعض "الحداثيين" الذين لا يتوانون في الحكم على العربية بالنقص والدّخَل كلما تعارضت قواعدها مع النظرية اللسانية الغربية(12)، علما أن اختلاف السياق الثقافي ينتج بالضرورة اختلافا في المفاهيم والمصطلحات، مع اختلاف أنساق التعبير بين اللغات المختلفة. وقد وقفنا لذلك من خلال التجارب الميدانية –في الجامعة خاصة– حيث كثيرا ما يعتمد طلابنا على مفاهيم اللسانيات الغربية محاولين إسقاطها، وتطبيق نظرياتها على نصوص عربية الأسلوب، دونما سابق توظيف للنحو العربي، ونتيجة لذلك تكلل بحوثهم – في أغلب الأحيان– بالغموض، بل ومخيبة للنتائج المرجوة منها، وسبب ذلك في نظرنا هو انعدام الانطلاق من الأساس الذي يتمثل في وجوب توظيف مكتسبات الطلبة في علم النحو العربي، بل يجب أن تكون عناوين المذكرات بالمصطلحات اللغوية العربية، إذا كان المتن المعتمد عليه "عربيا أصيلا" تمشيا مع العنوان. وهذا من شأنه أن يساعد الباحث على الغوص في مضمون النص المراد دراسته، وهذا لا يمنع – بطبيعة الحال– من الاستفادة مما توصلت إليه علوم اللسانيات الحديثة، شريطة ألا تلغى تلك المكتسبات العربية ويُؤخذ ما يوافقها بحثا عن أوجه الشبه بين الاتجاهات اللغوية المعاصرة والنحو العربي، وفي ذلك فائدة كبيرة حيث يمكن للباحث أن يتعمق في فهم خصائص العربية وعلومها لتتدعم مناعته الحضارية دون الانغلاق على الذات. لأن ما نصبو إليه في هذا المجال هو تجنب الاعتماد على النظريات اللسانية الغربية اعتمادا كليا، ثم إذا جئنا لتراثنا بحثنا في مضامينه عما يوافق هذا النظريات دون النظر إلى ما يخالفها في ذلك المنحى يعدّ مطبة كبرى بلا ريب.

والخلاصة مما سبق ذكره، أن النحو العربي يتصدر سائر العلوم العربية، لأن وظيفته لا تتوقف عند الحركات الإعرابية وإنما تغوص في مضمون التركيب بمفهوم شمولي يتناول كل عناصر التركيب للوقوف على المعنى المراد تبليغه وكل ذلك يتجلى في مفهوم الإسناد الذي قال عنه "سيبويه": "هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يُغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منهما بُدًّا"[13]، ومصطلح الإسناد مصطلح لساني في النحو والبلاغة حظي باهتمام النحاة قديما وحديثا، وهو قرينة صميمة وعلاقة تركيبية تلازمية تفيد تحديد المعنى النحوي في تركيب معين يعتمد عليها باث الخطاب في صوغ كلامه وتشكيله وفقا لمقتضيات حاجاته الإبلاغية تلبية لحاجاته التواصلية التي تستند إلى مجموعة من الدلائل والمؤشرات التركيبية.

فما هو الإسناد إذا؟، يظهر في ذلك الربط المعنوي الموجود بين ركني الجملة، والتي هي في الواقع تركيب يضم ركنين أساسيين تربطهما هذه العلاقة (علاقة الإسناد)، وتتمثل في ما سُمي حديثا بالوحدة النحوية الصغرى (الجملة) المستعملة في التعبير عما لا يمكن أن تؤدي معناه اللفظة المفردة، ومعنى ذلك أن هذه الوحدة اللسانية (الجملة) تفيد معنى مستقلا تاما يحسن السكوت عليه بتعبير النحاة الأوائل. وأما ركنا الإسناد فيظهران في المبتدأ والخبر، والفعل وفاعله، أو نائب فاعله، وبذلك فإن الإسناد يقوم على مسند ومسند إليه، ثم عملية الإسناد وذلك لا يعني –بطبيعة الحال– مجرد التركيب بل تركيب الكلمة مع الكلمة إذا كان لأحدهما تعلق بالأخرى على السبيل الذي يحسن به موقع الخبر وتمام الفائدة.

وبعد هذا التقديم الوجيز في باب الإسناد، نشير إلى انه على نمطين:

إسناد نمطي (نحوي): وهو علاقة معنوية في ذهن المتكلم، إذ تشكّل رمزا من رموز النظام اللغوي، وبذلك يأتي الكلام تطبيقا فعليا لهذه العلاقة المعنوية، لأن اللغة – وإن كانت وسيلة اتصال وتواصل– فلمستعملها خيارات كثيرة للتواصل، وذلك طبعا ضمن النظام اللغوي الذي ينتمي إليه، بحسب الدواعي والمواقف المسببة للخطاب، وهذا ما يشكل الصورة اللفظية أو التركيب الإسنادي الذي يشكل الحد

الأدنى من العناصر اللسانية الحاملة لمعنى مفيد يحسن السكوت عليه وفق أنماط الجملة إسمية أو فعلية، والتي منها يتركب النص طال أم قصر.

وقد أشرنا في مستهل المداخلة أن نحاتنا الأوائل لم يضعوا تحديدا دقيقا لأشكال الجملة ولكنهم توصلوا إلى ذلك التصور الذهني الذي تدور في فلكه الجملة العربية بأنماطها.

والخلاصة ان هذا النمط من الإسناد (النحوي) هي تلك الصورة النمطية لكل جملة إسمية أو فعلية أفادت معنى تاما (مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل، أو فعل مبني للمجهول ونائب فاعل..) والقصد من هذه الجملة تبليغ معنى تام يوافق مقتضيات عناصر الجملة التي تضمنته دون قصد لإحداث تأثير في المتلقي، لأن هذا المنحى يتناوله نمط آخر من الإسناد.

البلاغة العربية والإسناد: لقد أشرنا أن الإسناد مصطلح نحوي بلاغي، وأشرنا أيضا إلى أن الإسناد في النحو (الصناعة النحوية) يُخضع الجملة (فعلية أو إسمية) لمقتضيات نمط هذه الجملة، ويشترط في استقامتها "الإفادة" أي إفادة معنى معين ، دونما البحث عن سبل التأثير في المتلقي ليتبنى موقف باث الخطاب ويتأثر به، إذ يكتفي النحو بمراقبة مدى توافق عناصر الجملة المتضمنة للمعنى المراد إرساله لمتطلبات القاعدة النحوية، ثم تسند عملية البحث و"التنقيب" عن وسائل التأثير لعلم آخر هو البلاغة، والسؤال ما البلاغة؟، قد لا يفيد الخوض في تعريفات البلاغة وما جاورها من مصطلحات كالبيان، والفصاحة، لأن الكتب تعجّ بها ومناط الفائدة فيها هو تطبيقها عمليا والاستفادة من قواعدها من خلال نصوص ثرية بصورها للإفادة والاستفادة، ومع ذلك نورد شيئا من تعريف البلاغة كاستهلال لما هو لاحق بشأن العلاقة بين النحو والبلاغة، واخترنا تعريف "السكاكي" في كتابه "مفتاح العلوم"[(14)]، لدقة تعريفه حيث قال: "هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفيه خواص التراكيب حقها، وإيراد التشبيه والمجاز والكناية على وجهها". والملاحظ ان السكاكي قد أخرج مباحث علم البديع، لأنه علم يؤتى به

لتحسين الكلام وهو ليس من مرجعي علم البلاغة، غير أن الخطيب القزويني في "الإيضاح" قد قسم البلاغة إلى ثلاثة أقسام(15)، علم البيان يُعرف به وجود تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال، وعلم المعاني وهو ما يحترز به عن التعقيد المعنوي، ثم علم البديع هو كما قلنا لتحسين لفظ الكلام، وقد حذا حذو القزويني كل المتأخرين وأضحت البلاغة العربية تضم الأقسام الثلاثة المذكورة.

إنها البلاغة العربية بأقسامها، بيان ومعان وبديع، ينبوع فن القول ومعيار دقة القول ورشاقة الأسلوب وشرف المعاني من مضامين النصوص الثرية شكلا ومضمونا. ولما كان المقام لا يسمح لعرض ومضات وجيزة عن مباحث أقسام البلاغة العربية، لأنها مبسطة في كتب التراث، والكتب الحديثة ذات التوجه الأصيل، فإن المداخلة ستكتفي ببيان مصطلح "الإسناد" في البلاغة ووظيفته في تأدية المعنى، ثم ربط النحو بالبلاغة منهجيا، وكيف يمكن الاستفادة من مباحث تراثنا في هذا المجال اللساني الحيوي نطقا وتدوينا. لقد مر بنا مصطلح الإسناد في كنهه النحوي، وها هو أمامنا في علم البلاغة، فما المقصود به؟ هو علاقة ذهنية معنوية أيضا، لكن وظيفته على جانب كبير من الأهمية لأنها تبحث عن الخصائص الأسلوبية التي يتم بها آداء المعاني، فتثير كوامن النفس المتلقية بإشراقة التعبير وعمق وسمو المعنى الذي يقتضي دراية كبيرة بقواعد البلاغة العربية، لتمكن من الغوص في أعماق التراكيب ذات الجودة العالية. فقد تغيب عن الدارس ذي الكفاية المحدودة في هذا المجال معان وظلال معان شريفة لعدم قدرته على "فكّ" عُقد الإسناد، لذلك انطلق النحو العربي في دراسته من الجملة، وانطلقت البلاغة من النص مع العلاقة العضوية التي تجمع العلمين، ولا يمكن معرفة تلك العلاقة إلا عن طريق التطبيق العملي الممنهج من خلال نصوص مختارة تستجيب لمقتضيات العلمين معا، بل وأكثر من هذا، فإن الاعتماد على النحو والبلاغة ينجرّ عنه الاستعانة ببقية العلوم الأخرى، لأنها تشكل وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة – والتي إن حصلت – فهي لتيسير الفهم ليس إلا. وتكون للبلاغة العربية إشراقتها الوضاءة، إذا طُبّقت نظرياتها وقواعدها في نطاق

اللغة العربية بجميع مستوياتها، من غير فصل عن الأدب والنقد والنحو والصرف، وفقه اللغة وكل علوم العربية، ولهذا كانت البلاغة العربية نضرة عندما درسها البلاغيون في ضوء علوم العربية من غير إقحام المواقف الفلسفية والمتاهات المرتبطة بالمنطق وعلم النفس(16). وذلك لأن أنماط التعبير في العربية مغايرة تماما مع أنماط التعبير في لغات أخرى، ومحاولة إسقاط تلك النظريات الفلسفية في تحليل النصوص العربية غير مجد بالمرة، وسبقت الإشارة إلى ذلك، والبلاغة العربية منطلقها النص، مهما كان حجمه، وبمفهومه العربي وحتى الغربي، وهو وحدة دلالية مستقلة مهما كان حجمها. ومن هنا نقف عند نقطة هامة وهي تلاحم علمي النحو والبلاغة العربيين في استنطاق أي نص، ذلك ما جاء في نظرية النظم الشهيرة (لصاحبها عبد القاهر الجرجاني) فقد بين في كتابه "دلائل الإعجاز"(17)، أن البلاغة بعلومها تساعد في أداء المهام الأساسية للغة والقائمة على أساس عنصرين هما: اللفظ والمعنى، ومدار ذلك أن يضع المتكلم كلامه الموضع الذي يقتضيه علم النحو والعمل على قوانينه وأصوله، ومن ثمة العلاقات التي تتولد من ائتلاف الكلمة مع الأخرى، فتجاوز بذلك الحكم الإعرابي للمفردة في ذاتها أو في حروفها إلى العلاقات التي تقيمها اللغة بين المفردات وهي نظرة شمولية تتضمن كل ما يتصل باستخدام اللغة في أساليبها ومواقفها المختلفة. مما يتضح عنده أن معاني النحو ليست الإعراب، وإنما يعتمد الفكر على دقائق العلاقات المتولدة في التراكيب إذ تسمو فيه الدلالة سموا يحدث أثره في المتلقي أو ما يسمى بالمزية أو الفضيلة، والتي تتجلى من خلال المهارة الأسلوبية والاستقامة والصحة النحوية. ولا شك أن ارتباط النحو والبلاغة في التحليل – تحليل النصوص الثرية الأصيلة- تجعل النحو قرينا للإبداع وليس فقط لضبط أواخر الكلمات. وذلك ما شكل جوهر نظرية النظم، وأصبح من المتفق عليه الآن إدراك التقارب بين كثير من جوانب الأسلوبية(18)، بمعناه الحديث وجوانب البلاغة المضيئة في تراثنا، والتي علينا أن نحسن توظيفها في التعامل مع النصوص كما سبقت الإشارة، وهو ما يمكّن من استكشاف مواطن التأثير

والتأثر، والتي تجعل القارئ يتبنّى المواقف المختلفة، ليصدر الأحكام ويعلل، وبالتالي يفيد ويستفيد، وذلك تؤديه البلاغة العربية ممزوجة بعلم النحو ومنطلقه منه أو ما يسمى بالإبلاغية، والتي هي جوهر البلاغة لأنها تتشكل أصلا من القيم الانفعالية في اللغة وتناغم الأصوات والإيقاع، وإبراز عناصر محددة في العبارة، وتداعي الأفكار والأساليب والتعابير الأدبية المتسمة بالفصاحة والبلاغة.

خاتمة:

ومن تلك السطور نوجز ما يلي:

- لكل أمة تاريخها وقيمها الحضارية التي منها التراث بمضامينه المادية والمعنوية والتي تشكل جزءا هاما من الانتماء الحضاري لتلك الأمة.
- تراثنا موجود،ولا يمكن لأحد أن يقفز عليه أو أن ينكره، لأنه شكّل ذاكرتنا الحضارية، ويحتاج على الدوام إلى تصفح وإعادة نظر براغماتية نفعية يتم من خلالها "تحيين" محتوياته بما يتمشى ومقتضيات المرحلة، وذلك من شأنه أن يرسم لنا السبل الوضاءة للمستقبل ومن ثمة بناء ركائز أصالتنا.
- إن المتتبع لتاريخ الحضارات الإنسانية، يلاحظ أن أسباب الرقي الحضاري إنما أساسها فكر حي أصيل قائم على توازن حقيقي بين مستجدات الحياة وثوابته التي منها تراثه، وفقا لذلك ينشأ مبدأ "الخصوصية والتمايز"، وهما ركيزة كل فن(19)، وذلك التفرد هو الذي يخلق الشخصية المتميزة للفرد والأمة في مختلف مجالات الحياة فكرا وعملا وهذا لمواجهة متطلبات الحداثة والعولمة والتي من خلالها تهيمن أمم على أخرى ببسط ثقافتها على الضعفاء.
- من عناصر التراث العربي الإسلامي علوم اللسان العربي، التي وُلدت من رحم الحضارة الإسلامية، وتبعا لذلك فهي "حيادية" لا تنتصر لجهة معينة

تقتضي منا النظر فيها و بعثها لمسايرة تطور علوم اللسانيات الغربية التي سادت العالم، بنظرة أحادية لا تعترف بعنصر الخصوصية والتمايز.

- إن "تحيين" علوم اللسان العربي ضرورة حضارية، ويتم ذلك عن طريق إعادة النظر في هذا التراث الضخم، واستخدام علومه وقواعده ونظرياته في تحليل النصوص بالمصطلحات الأصيلة، ولا مانع من الاستعانة باللسانيات الحديثة كلما وافقت اتجاهات علوم اللسان العربي، لأن اختلاف أنماط التعبير بين اللغات وأنماط الثقافات يؤدي بالضرورة إلى وضع مصطلحات مغايرة بينها.
- تبين من خلال المداخلة أن علوم العربية (علوم اللسان العربي) لا يمكن الفصل بينها، لأنها تشكل "المفاتيح" لولوج المضامين الإبلاغية للنصوص الثرية وقبل ذلك القرآن الكريم، وخاصة علمي النحو والبلاغة مما يستوجب إعادة النظر في تدريسها بتجنب الطرق الجافة العقيمة، وتوفير المتون (النصوص المستوفية) لعناصر العلميْن المذكورين.
- دلت التجارب أن علم النحو يتصدر سائر علوم العربية، لأنه المنطلق في التحليل كونه يتناول الكلمات مركبة مع غيرها، ومواضيعه مشتركة مع علم البلاغة (وذكرنا بشأن ذلك الإسناد بنمطيه العادي والفني)، والثاني هو المعول عليه في تذوق الآثار الغنية بمضامينها ولا يمكن تنمية الذوق الأدبي إلا من خلال الاعتماد على الإسناد الفني في النص، ذلك انه: "لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع ولا يجد له قبولا حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة"[(20)].
- وأخيرا فإنّ "**الماضي** هو بعض من وجودنا" والحاضر هو بعضه الآخر، وبين هذا وذاك تفاعل وتكامل لا خصام ولا صدام"[(21)].

هوامش:

1- يُنظر:1 ابن منظور/ لسان العرب/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ ط1/ 1988، دج 15، ص266، مادة ورث.

أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري/ الصباح المنير/ دار الحديث ، القاهرة، دط/ 2008، ص411.

2- ابن منظور/ لسان العرب/ مج: 15/ ص266، مادة: ورث.

3- Le petit Larousse illustré, 21, rue Montparnasse 75283, Paris2008, p752.

*ترجمة صاحب المقال.

4- ابن فارس/ معجم مقاييس اللغة/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت/ دط، 2008، ص.1050

5-المقدمة/ مؤسسة قصر البخاري للنشر والتوزيع/ الجزائر/ 2012/ أحمد جاد/ ص547.

6-السابق نفسه، ص547.

7-جعفر دك الباب/ نظرية عبد القاهر اللغوية النحوية البلاغية/ حوليات جامعة الجزائر، ع7، 1993.

8- محمد إبراهيم عبادة/ النحو العربي أصوله وأسسه وقضاياه وكتبه/ مكتبة الآداب / القاهرة/ ط1، 2009، ص489.

9-محمد بركات حمدي/ لفتات ومواقف حول الصلة بين النحو والصرف/ مكتبة الرسالة/ عمان/ 1978، دط، ص12،11.

10-السابق نفسه، ص10.

11-حسام أحمد قاسم/ الأسس المنهجية للنحو العربي/ دراسة في كتب إعراب القرآن/ دار الآفاق العربي، القاهرة/ ط1، 2007، ص13.

12- محمد الأوراغي/ نظرية اللسانيات النسبية، دواعي النشأة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الرباط/ ط1، 2010، ص47.

13- الكتاب/ ت: عبد السلام هارون/ دار الجيل، ط1/1991، ص1/ 23.

14- نقلا عن: أحمد مطلوب/ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها/ مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان/ دط، 2007، ص236.

15- السابق نفسه.

16- محمد بركات حمدي/ لفتات ومواقف حول الصلة بين النحو والصرف، ص61.

17- ينظر: عبد القاهر الجرجاني/ دلائل الإعجاز في علم المعاني/ ت: محمد رشيد رضا، ط1/ 1999، دار المعرفة بيروت/ ص70.

18- سعد أبو الرضا/ في البنية والدلالة/ رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية/ منشأة المعارف الإسكندرية مصر/ دط دت/ ص23.

19- السابق نفسه، ص11-14.

20- عبد القاهر الجرجاني/ دلائل الإعجاز/ ص198.

21- صفوان قدسي/ عروبة الزمان وعروبة المكان/ مجلة الموقف الأدبي/ اتحاد كتاب العرب/ دمشق، العدد122، حزيران، يونيو 1981، ص6.